ليلى المريضـــة بالعراق

للدكتور زكي مبارك

— ٢ —

... ودخلت أعدو خلف الوصيفة في بصر زائغ ، وقلب خفاق ، فلم أكد أتبين مدخل البيت ، وعثرت قدمي على السلم عثرة خفيفة سلم الله منها ولطف ، وانتهيت إلى غرفة صغيرة فيها أريكة وثلاثة مقاعد ، وتركتني الوصيفة وراحت تدعو ليلى ، فتلفت أدرس أساس الغرفة في لهفة وشوق ، فوجدت على الحائط قطعة من القطيفة نقش عليها هذا البيت :

يقولون ليلى بالعراق مريضةٌ فيالَيتني كنت الطبيب المداويا

ورأيت بجوار تلك القطيفة صورة السيدة نادرة التي جمعت عواطف العرب حول ليلى بفضل ما أبدعت في ترجيع هـذا البيت ، ورأيت فوق المنضدة كتابين : رسالة التوحيد للشيخ محمد عبده ، وذكريات باريس للشيخ زكي مبارك ، فيا عجباً كيف جاز لمنزل ليلى أن يجمع بين الهوى والضلال !

وغابت ليلى ولم تعد الوصيفة ، واستمر الحال كذلك عشرين دقيقة ، فدفعني الملال إلى التلهي بالنظر في سلة المهملات ، وما أدري كيف وقعتُ في هذا الفضول ، فهل تصدقون أني رأيت بين الخطابات الممزقة رسالة من «فلان» يؤكد لها أن زكي مبارك أديب وليس بطبيب ؟ سامحك الله يا دكتور فلان ، ولا أراك نعمة الهوى والجنون !

لعل ليلى في زينتها ، وإلا فكيف أعلل صبرها عن لقائي كل هذا الزمن الطويل ؟

ثم فتح الباب ، ودخلت امرأة ملفوفة بالسواد لا تقع العين منها على شيء ، ولم لا أقول دخل شبح أسود تخيل كأنه عود الخلال ؟

وانحط ذلك الشبح على أحد المقاعد ، ولكن هذه الجفوة لم تمنع قلبي من تواتر الخفوق . وبعد لحظات طوال كأعمار الأحزان تكلمت ليلى

رباه ! ماذا أسمع ؟ إن أذنيّ لا عهد لها بمثل هـذا الصوت المكسر الناعم الحزين

ومضت ليلى تتكلم وتسهب ، ولكني لم أفهم شيئاً ، فقد كنت مشغولا بدرس طبيعة هذا الصوت ، هذا الصوت الذي يذكرني بتلك الفتاة التي خفق القلب لها أول خفقة ، والتي قلت فيها أول قصيدة ، وسكبت عليها أول دمعة ، تلك الفتاة المنسية التي تنام في قبر مجهول تحت سماء سنتريس

ما هذا الصوت ؟ يا رباه ! أفي الحق أني سمعت أمثال هـذه النَّبرات على كثرة ما طوَّفتُ في البلاد ؟

لا أكذب الحق ، هذا جوهر لم أشهد مثله في سنتريس ولا باريس ، وإنما هو من جواهر العراق ، هو صوت تحدر عن تلك الانسانة التي قال فيها أحد المفتونين في بغداد :

وكأنَّ رَجْعَ حديثها قِطعُ الرياض كسين زهرا

هو صوت تحدر عن تلك الانسانة التي قال فيها أحد القدماء :

رُهبانُ مدين والذين عهدتُهم يبكون من خوف العذاب قُعودا

لو يسمعون كما سمعتُ حديثها خروا لعزة ركَّعاً وسجودا

هو صوت ليلى يا بني آدم ، ليلى المريضة بالعراق ، ولو سمعه الشيخ فلان لسال منه الأسلاب

ثم انتبهت ، فقلت في نفسي : إن ليلى بخير ، فهذا الصوت الضعيف يحمل قوة تهد رواسي الجبال

ثم انطلقنا نعدد في شجون الأحاديث ، فسألتني عن مصر ، وسألتني عن صاحبة الذهبية التي ترسو على الشاطئ الأيمن خلف جسر اسماعيل ؟ فعجبت من أن تصل أخباري إلى ليلى وهي مريضة بالعراق ، وقلت : إن تلك الانسانة بخير ، ولكنها تركت الذهبية وعادت إلى منزلها بمصر الجديدة ، وقد صحا القلب يا ليلى فلم يَعُد بيننا تلاق منذُ ربيع سنة ١٩٣٥ والله المستعان على مكاره الصدود !

فتنهدت ليلى وقالت : حتى أنت تنسى العهود ! وماذا خليت لِغُلْف القلوب ؟

ومضت تتحدث عن الحياة الأدبية في وادي النيل ، وسألتني عن كثير من الأدباء ، فكنت أذكرهم جميعاً بما يحبون أن يذكروا به في بغداد ، ورأيت أن أكون أميناً في تبليغ التحيات فقلت : إن الأستاذ الزيات يسلم عليك . فقالت : لا أحب أن أسمع اسمه . فقلت : وكيف ؟ فقالت : هل تصدق أنه أقام سنين في بغداد ولم

يسأل عني ؟ فتشجعتُ وقلت : لعل له عذراً وأنت تلومين ! ذلك رجل يهيب أقاويل المرجفين

واستطردت فقلت : ولعل الدكتور السنهوري قام بالواجب .

فضحكت ضحكة عالية كادت تخرق النقاب وقالت : السنهوري أغلظ كبداً من ذلك !

فقلت : وما صنع الدكتور عبد الوهاب عزام ؟

فأجابت : أوَ كنت تحسبني أنتظر زيارة الدكتور عزام ؟ إنه رجل أديب ، ولكن انشغاله بالتحريم والتحليل لم يترك في قلبه مجالاً لرقيق الأحاسيس

فقلت : لقد مرّ الأستاذ أحمد أمين ببغداد منذ سنين ، فماذا فعل ؟

فقالت : هو رجل صافي الذهن ، ولكن يظهر أنكم أوهمتموه في مصر أن العالم الحق لايليق به أن يُشغَل بشؤون الوجدان

ثم أغرقتْ في صمت مُوحش حسبتُه لوناً من العتاب

* * *

وجاءت أقداح الشاي ، فتجرأتُ وقلت : وأين أكواب الصهباء ؟ نحن في حضرة ليلى وتحت سماء بغداد !! فقالت : أنا امرأة مسلمة ونحن في رمضان ؟ وأنتَ ؟

فقلت : وهل حسبتني من الكافرين ؟

وفهمتُ أنني أخطأت فغيّرت مجرى الحديث

— مولاتي ليلى !

— نعم ، يامولاي !

— إنما جئت للعناية بصحتك ، كما تعلمين

— أعرف ذلك ، وهو فضل سأذكره ما حييت . سأذكر أن الحكومة المصرية كانت أعرف الحكومات الشرقية بالواجب نحوَ امرأة عليلة أوحت ما أوحت من الشعر والخيال ثم أضرعها الداء فتناساها الأهل والأقربون

فقلت : البركة في الحكومة العراقية

فقالت : الحكومة العراقية ؟ سامحها الله ! هل تصدق يادكتور أن الحكومة العراقية تبيح لمحطة الإذاعة أن تذيع جميع الأغاني والأناشيد ، إلا الصوت الحزين :

يقولون ليلى في العراق مريضة فياليتني كنت الطبيب المداويا

وهنا تنبهت إلى أني لم أسمع هذا الصوت في بغداد

فقلت : وكيف تحرّم الحكومة العراقية هذا الصوت ؟

فأجابت : إن الحكومة في هذا الزمن لاتعرف غير الجيش والرماح والسيوف والمدافع ، وهي تبغض أحاديث الوجدان كل البغض ، ولا يرضيها أبداً أن يتحدث إنسان عن ليلى المريضة بالعراق

فقلت : وكيف يصح ذلك وعندكم وزير مشرق الجبين هو المدفعيّ ، وعندكم وزير أديب هو الشبيبي ؟

فقالت : أما المدفعيّ فله من اسمه نصيب ، لأنه منسوب إلى المدفع ؛ وأما الشبيبي فلا تغرّنك بسمته العذاب ، فقد كان شاعراً فيما سلف ، أما اليوم فهو من دواهي العراق ، العراق الذي يعبد النضال

ومرت لحظات صمت كانت أبلغ من الإفصاح

* * *

— مولاتي ليلى !

— نعم يامولاي !

— إنما جئت للاهتمام بصحتك

— أشكر لك يادكتور ، ولكنك تكرر هذه العبارة . فماذا تريد ؟

— أريد أن أرى وجهك ويديك

— وهل تريد أن تخطبني ؟

— ليس هذا ما أريد ، ففي بحمد الله أهلٌ وأبناء

— إذن ماذا تريد ؟

— اعقلي يا ليلى ، إن الأمر كله جِدّ ، والأمة المصرية تهتم بصحتك أبلغ اهتمام ، وقد نزلت الحكومة عند إرادة الأمة فأوفدتني إليك ، ثم بالغتْ في الاحتياط فأوعزتْ إلى الدكتور علي باشا ابراهيم أن يقترح على الجمعية الطبية أن تجعل مؤتمرها المقبل في بغداد ، وأنا أحب ألا يعقد المؤتمر إلا وأنت في عافية الفرس الجموح ، فإن لم يمكن ذلك فلا أقل من أن أقدّم للمؤتمرين تقريراً ضافياً يشهد بأنني لم أضع الوقت في التعرف إلى عيون الظباء . وسيقدّم الدكتور محجوب ثابت وهو من خصوم الأدباء ، وأخشى أن يشي بي فيصرح لمعالي الأستاذ نجيب الهلالي بك بأنني لم أكن في الحرص على مهمتي من الصادقين

وبدأت ليلى فكشفت عن يديها ، فانخلع قلبي من الرُّعب ، حين وقع البصر على تلك الأنامل الصُّفر الدِّقاق

فتماسكتُ وقلت : وعيناك ؟

فألقت النقاب عن وجه مليح التقاسيم كان له في ماضيه تاريخ جميل ، وتأملت أنفها مرات ومرات فرأيت فيه أُخيلةً من الملاحة قلما يجود بمثلها الزمان

ثم ارتقيتُ فوقعتُ على عينيها وُقوعَ الطائر الظمآن على المورد النمير

الله أكبر ! ما هذا السحر المبين ؟ أأنت مريضة يا ليلى ولك هاتان العينان ؟

فابتسمت وقالت : صدق الدكتور فلان حين كتب إليّ أنك أديب ولست بطبيب !

فقلت : إنما أريد بعث الطمأنينة في قلبك المروّع يا مريضة العراق

وقضيت ساعتين في مسامرة ليلى ثم استأذنت في الانصراف والله المحمود على نعمة ذلك الحديث

* * *

والآن أوجه القول إلى الأمة المصرية ، الأمة القلقة على المريضة بالعراق ، ولا سيما الأستاذ محمد الهراوي الذي دسّ في جيبي دينارين على المحطة ، أجرة برقية أرسلها من بغداد ليطمئن على ليلى المريضة بالعراق ، إليهم أوجِّه الكلام فأقول :

بني وطني :

إن ليلى تملك عنصرين مهمين من عناصر الحياة : رخامة الصوت ، وملاحة العينين ؛ ولكنها مع ذلك فريسة الضَّنَى والنحول ، وسأبذل جهد الجبارة لأصل بها إلى ساحل النجاة

وقد كلفت السيدة جميلة المقيمة بشارع صريع الغواني أن تحتال في دعوة وصيفة ليلى لقضاء سهرة بريئة في منزلي بشارع الرشيد ، فإن حضرت تلك الوصيفة فسأعرف سرَّ ليلى . سأعرف كيف قضت أهوال الحب بأن تصل إلى ذلك النحول

فإن تمت تلك المحاولة فقد أصل إلى شيء ، وإن لم تتم فستذهب جهود المؤتمر الطبي أدراج الرياح

وأنا أرجو صديقي الأستاذ الزيات أن يقف أطباء مصر على تفاصيل هذه المعضلة ، فما أحب أن يعودوا خائبين ، فيسيئوا إلى سمعة الحكومة المصرية بلا موجب معقول

وأنت أيتها السيدة التي اسمها جميلة ، والتي زعمت أنني فتى جميل ، اسمعي ؛ ليس يهمني بالدرجة الأولى على حد تعبيركم في بغداد أن تغسلي ثيابي ، وأن تحضري لي مائدة فخمة في كل أسبوعين ؛ يا بخيلة ، وإنما يهمني أن تعودي وصيفة ليلى إلى منزلي ، إلى غرفة الاستقبال يا لئيمة لا غرفة السرير ، فإن عند تلك الفتاة أسراراً تكشف المحجوب من حياة ليلى المريضة بالعراق

يا جميلة ! لقد كنت في صباك جميلة ، فكوني عند ما أرجوه من محمود الظنون

يا جميلة ! أنا أنتظرك مع وصيفة ليلى في الساعة العاشرة من مساء السبت المقبل ، والله بالتوفيق كفيل

(*) الحديث بقية)

زكي مبارك

فرصة لتحسين مركزك

دروس بالبريد بواسطة أساتذة اختصاصيين على أحدث الطرق المتبعة في المدارس والجامعات الغربية ، للحصول على الشهادة الابتدائية أو البكالوريا . دراسة اللغة الأجنبية للتخصص في الصحافة والشعر والزجل وفن الروايات . الرسم والكاريكاتور . القانون والثقافة العامة . التجارة ومسك الدفاتر . الزراعة وفلاحة البساتين . الهندسة الميكانيكية والكهربائية وهندسة البناء ، والهندسة الصحية . المساحة والطرق والكباري . السكك الحديدية . البلديات . المقاولات . التنظيم . الناجم . الراديو . التليفون التلغراف . التجارة . الحدادة . السيارات . الخ ...

كتاب طريق النجاح في ٨٠ صفحة مقابل ١٠ مليمات طوابع بوستة فقط . قسيمة مجاوبة في الخارج . واكتب إلى مدارس المراسلات المصرية ١٠ شارع قنطرة غمرة مصر — تليفون ٥٠٣٥٩